وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير ، لكن ذكر ﴿مَن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْد معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونيـة التى تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق - عز وجل - كالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ ليؤيدهم الله بها ويُظهر صدْقهم فى البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقد كفر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فلم يُصدِّقوا منها شيئاً ، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله فى الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، كان عليهم أن يجادلوه ، وأن يدافعوا عن آلهتهم ، وأن يُظهروا حجتهم فى عبادتهم .

إنما يأتى جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجرد هروب من المواجهة ، وإفلاس فى الحجة ، إنه جواب مَنْ لم يجد جواباً ، وليس لديه إلا التهديد والتلويح بالقوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو فى صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل فى التراب ، إذن : فهما سواء فى أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى تضىء ، فالكهرباء لا توجد فى اللمبة ، إنما فى شىء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء فى اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لاستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضىء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهى سليمة .

ثم قالوا ﴿ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً فى العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمَّا التحريق فلا يعنى بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقط اقتلوه وتنتهى المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ثم تراءى لهم رأى آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا

يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجـولة لصـالحهم .

لكن مَن الذى قال ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَن المأمور ؟ لقد اتفـقوا جميعاً على قتله ، فالآمـر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبـوت] فالقـوم جمـيعـاً تواطئوا على هذه المسـألة . أو أن الآمـر هم رؤساء القـوم وكبـارهم الذين يأتمـر النـاس بأمـرهم ، أما التنفـيـذ فمـهمـة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سـبحانه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهنا يعترض الفـلاسفة : كيف والنار من طبـيعتها الإحـراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأتِ على هذه الصورة ؟

إن الحق سـبحـانه خلق الخَلْق وجـعل فيـه نواميس تفـعل فعلهـا وتؤدى مهـمتها تلقـائياً ، فالأرض مـثلاً حينما تـحرثها ، وتلقى فيـها الحَبَّ ، ثم ترويها ، النامـوس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

لذلك إن لم يـكُنْ لك رزق فى حـرثك هـذا ، فـلا ينبت النـبـات ، أو ينبت ثم تصـيبـه آفـة أو إعصـار فيُـهلكه قـبل استـوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقـد خرق الله نوامـيس الكون لموسـى ـ عليه السـلام ـ حينمـا ضرب البحر ، فصـار كل فِـرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء

إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار :
﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل فى الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت] ونذكر فى قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] آية وهنا قال ﴿لَآيَاتٍ.. (٢٤)﴾ [العنكبوت] وهناك قال ﴿لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] وهنا قال : ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت] فالاختلاف إذن بين السياقين فى أمرين :

قال فى السفينة ﴿آيَةً.. (١٥)﴾ [العنكبوت] لأن العجيب فى أمر السفينة ليس فى صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا فى مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه فى النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفىء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء فى النار .

لكن لم يحدث شيء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه فى

النار وهى مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن السفينة حينما رستْ ونجا ركابها ظلَّتْ السفينة باقية فى مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشاهد .

أمّا فى مسألة إبراهيم - عليه السلام - فقال ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن نجاة إبراهيم - عليه السلام - كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهى آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التى رأيتموها حين نجانى ربى من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون

بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]

وفي آية أخرى ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة]

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

وقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن

لأخيه الذى جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها - على كُرْه منه وضيق - جزاك الله خيراً لقد أنقذتنى .

ولا ينتهى الأمر عند هذه العقوبة التى يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام فى الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولى أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهى هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكي قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفى أن الله تعالى قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى : أن قوم إبراهيم - عليه السلام - ظلوا على كفرهم ، والذى آمن به لوط - عليه السلام - وكان ابن أخيه ، وكانوا فى العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] حين نتتبع كلمة آمن فى

(١) الأمة : الرجل الجامع للخير . والأمة : الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . [لسان العرب - مادة : أمم] .

القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف فى المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابى ، فهنا ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما فى قوله تعالى عن قريش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذى آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف] ومعنى ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] أى : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى ـ رحمة الله عليه ـ وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطى[(١)] . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضى عليها ؟

---

(١) جاء فى : [لسان العرب ـ مادة : لَوَط] « لاط الرجل لواطاً ولاوط أى : عمل عمل قوم لوط . وقال الليث : لوط كان نبياً بعثه الله إلى قومه فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعَلَ فعْلَ قومه » .

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلى ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزى ، ولبختنصر قالوا : بختى ، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم دَرْعمى .. إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قَوْطى) ونُجنِّب نبى الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته فى تكريمه : (لك فى العلم مبدأ طَحْسَنى) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] جاءت جملة اعتراضية فى قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم فى قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شىء إلى شىء آخر ، لكن هَجَرَ تعنى أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبى ﷺ لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعنى أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل فى الهجرة ، وهم طرف ثَانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبى :

إذَا ترحَلْتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدَرُوا   ألاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة أنْ يسمى نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثي ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذي تركه ، لكن هنا قال في الفعل : هاجر . وفي الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار إيمان ، لأن رسول الله ﷺ حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد »[1].

وكأنه ﷺ بُسطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرةً إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربي هي المقصودة ، وإلا فلَكَ أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك في كل مكان هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربي ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة في الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٠١/٢) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (٣٢١/١) .

حقق رغبة فى نفسك ، فأنت ـ إذن ـ لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء فى الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(١)] .

فالمعنى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] يعنى : ليس الانتقال على رغبتى وحَسْب هواى ، إنما حسب الوجهة التى يُوجِّهنى إليها ربى . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع فى تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه علَّه يرجع فى قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه هى كلمة الحق التى هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أن ربى هو الذى يُوجِّهنى ، وهو سبحانه فى كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥)﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى ما وجَّهتكم فى صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب . وأوله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

المعنى ؛ لأنك تتجه إليها من أى مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهى قبلتُك .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] اختار الخليل إبراهيم - عليه السلام - من صفات ربه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : الذى لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حضن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : فى تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التى أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم - عليه السلام - من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو فى طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا[1] . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق

(١) أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً في القوم ، بدليل قولهم عنه لما حطّم أصنامهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه وقال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام في التشهد في كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم في دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] وكأنه يقول : يا رب إن قومي يستقلونني ، فاجعل لي ذكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل - عليه السلام - غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميز عليها[2] ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب في هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] . وقال ابن سيده : القانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . وقال ابن منظور : القنوت الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية [لسان العرب - مادة : قنت] .

(٢) ذكرت التوراة هذا : « رأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق . فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدْعى لك نسل . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [سفر التكوين ٢١ : ٩ - ١٣] .

إسْحَاقَ .. ﴿٢٧﴾ [العنكبوت] ثم ﴿ويعْقُوبَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى قال : ﴿ويعْقُوبَ نَافِلَةً .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء]

أى : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت فى الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت] لذلك حين نستقرئ موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته[1] .

والذرية المذكورة هنا يُراد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهَبان من سارة ، أمَّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعى الذى يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - فى هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ،

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٩/٧) : « فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل والفرقان ، فهو عبارة عن الجمع ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده ﷺ » .

فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين فى الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْكِتَابَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] أى : الكتب التى نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهى : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه فى السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً .. إلخ وهذا أجره فى الدنيا فقط[(١)] .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [العنكبوت] يعنى : لن نقول له أذهبتَ طيباتك فى حياتك الدنيا ، بل هو فى الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره فى الدنيا لم يُنقص من أجره فى الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم فى الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثِر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤١١/٣) ما يقرب من هذا دون تفصيل ، فقال : « كان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه » . أما القرطبى فقال فى تفسيره (٥٢٢٩/٧) : « يعنى : اجتماع أهل الملل عليه ، قاله عكرمة » . وقال ابن عباس : « إن الله رضَّى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به » وفى قول آخر عنه « الولد الصالح والثناء » . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٤٥٩/٦) .

لما سأله عن سارة قال : أختى ، والثانية لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إنى سقيم[1] . والثالثة قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أى : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء . لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح فى الآخرة ؟

ثم إن المتأمل فى هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التى قال عنها النبى ﷺ : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »[2] فقوله عن سارة : إنها أختى ، هى فعلاً أخته فى الإيمان ، وربما لو قال زوجتى لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغى للمؤمن حضوره ، كما أن السُّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله ؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم رضى الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غداً عيدنا فاخرج . قال : فنظر إلى نجم ، فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لى فتولوا عنه مدبرين . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٧/١٠٠] .

(٢) أخرجه ابن عدى فى « الكامل فى ضعفاء الرجال » (٣/٩٦) من حديث عمران بن حصين ، وفيه داود بن الزبرقان .قال البخارى : مقارب الحديث . وقال النسائى : ليس بثقة ، قال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء الذين يُكتب حديثهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن فى الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل فى الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء فى عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأنثى الحيوان المنوى الذكَرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىٍّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .